

ثمامة بن أشرس

المؤلف ساذ على السباعى

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

هو أبو معن ثمامة بن أشرس النمرى (١) أحد ناشرى الاعتزال ، ورأس طائفة نسبت إليه تسمى الثمامية ، ولد بالبصرة ؛ وليس بذى بال أن يعين المؤرخون فى أية محلة من محلاتها ولد ، ولا فى أى يوم وجد ، ما داموا قد أحاطونا علما بعصره ومن أدرك ، وأوقفونا على آثاره وما ترك . وقد حدثونا أنه بعد نشأته فى البصرة ، مدرسة العلم والأدب ، ومهد اللغة والاعتزال فى القرنين الأول والثانى ؛ صعد منها إلى بغداد ، موطن الغنى والجاه ، ومباهة العلماء والأدباء ، ومصدر الشهرة وذىوع الصيت ؛ فالتقى فيها ببشر بن المعتمر رئيس المعتزلين فى بغداد ، فأخذ عنه كما كان أخذ عن أبى الهذيل العلاف فى البصرة . ومن زملائه فى الطلب ببغداد ، موسى المزدار ، وأحمد بن أبى دؤاد ، والجعفر بن جعفر ابن مبشر ، وجعفر بن حرب ؛ ويظهر أن من زملائه فى البصرة الجاحظ . واستنباط بعضهم أنه من شيوخ الجاحظ لأنه يقول : حدثنى ثمامة ، أخبرنى ثمامة ؛ أو لأنه نقل عنه كثيرا فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان - ليس بقوى مدعم بالبراهين ، لأن العلماء المعاصرين ينقل بعضهم عن بعض من غير أن يكون

(١) نسبة إلى قبيلة بنى نمر المشهورة ؛ ومن شعرائها الراعى ، وأبو حية النمرى ؛ وقد هجأها جرير بقصيدته الدامغة ، ولكن هجاءه لم يذهب بشرفها ولم يحط من مكاتها ؛ فقد كانت إحدى جمرات العرب ؛ والجرة : القبيلة تصبر لقراع القبائل لا تحالف أحدا ولا تنضم إلى أحد اعتزازا بقوتها ؛ وإلى ذلك يشير أبو حية :

لنا جمرات ليس فى الأرض مثلها كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعيس يتقن نفيانها وضبة قوم بأسهم غير كاذب
والنفيان : معناه رشاش السحاب ، شبه به من يتطرف من الجيش

أحدهم أستاذا للآخر، ولأن ثمامة مشهور بالاعتزال. وشيخ الجاحظ في ذلك النظام.

وحين اشتهر أمره في بغداد، وعرفته مجالس العلم والمناظرة مجادلا ظاهر الحجة، قوى البديهة، مسكت الجواب، ذا حكايات ظريفة، ونوادر طريفة. رحبت به مجالس الوزراء، وفتحت له أبواب الخلفاء، فاختلف إليهم وأصبح من الندامى والسمار، بل في منزلة المستفتى المستشار، أنس به الرشيد وقربه إليه، ثم غضب عليه لزندقته وظهور كذبه في أمر أحمد بن عيسى بن زيد^(١) فأمر بحبسه. كما يقول الطبري - في سنة ١٨٦ وأسله إلى سجان يدعى سلاما الأبرش وأشار إليه بالتضييق عليه وتعذيبه فسجنه - كما يعترف ثمامة - في بيت ضيق خرب مملوء بأجحار الهوام والجرذان، وليس به من المنافذ إلا ما يدس منه الطعام، وقد استعطف الرشيد بأبيات فعفا عنه وقربه وجعله نديمه، لما رأى من نضج عقله، وحسن أدبه، وحلاوة حديثه.

واتصل بالمأمون بعد الرشيد فخطى بمكانة لاتسامي، وجعله منه بمنزلة الاستاذ الخبير، والناصح المستشار، وقد عرض عليه الوزارة مرتين فأبأها، لا زهداً في المنصب وقناعة بما يملك، وإنما توقياً لأخطار الوزارة، وبعد أعن غيرها، وسلامة من تقلب الخلفاء وتغيرهم؛ وقد أعرب هو نفسه عن ذلك فقال: لما قتل الفضل ابن سهل بعث إلى المأمون - وكنت لا أنصرف من عنده إلا إلى منزلي، ثم يأتيني رسوله في جوف الليل فأذهب إليه - وكان قد أهلني لمكان الفضل في الوزارة، فلما رأيته قد ألح على في ذلك تعاللت عليه وقلت: يا أمير المؤمنين، إني لا أقوم بذلك، وإني لأضن بموضعي من أمير المؤمنين وحالي أن تزول

(١) هو من نسل الحسين بن علي، كان خارجاً على الخلفاء العباسيين متعباً لهم، ومات في زمن المتوكل بعد إسحاق الموصلي في سنة ٢٣٥ هـ، وقد قال المتوكل لما بلغه نعيه، وكان مغتماً لوفاته إسحاق: تكافأت الحالان، وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجعية بإسحاق فالحمد لله على ذلك.

عنده ، فإن لم أر أحداً تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ، ولا تدوم منزلته . فقال المأمون : أشر يا ثمامة على رجل صالح لما أريد . فأشار عليه بأحمد ابن أبي خالد الأحول... فأنت ترى من نص عبارته أنه كان راغباً عن الوزارة ، لا زاهداً كما كان يفعل نظراؤه من المعتزلين الزاهدين أمثال عمرو بن عبيد وواصل والجعفرين ، الذين كانوا يرفضون ولاية الأعمال والقضاء ، بل يأبون مقابلة الخلفاء ، ويقبضون أيديهم عن أخذ العطاء - وإنما لأنه شديد الحذر ، بصير بالعواقب ، مقدر ما ينوب صاحب السلطان من خطر ؛ وكيف لا يقدر ذلك وقد رأى وسمع مالاقيه الوزراء في هذه الدولة ، بل جرب هو نفسه تقريره ثم إبعاده ، وإجلاله ثم إهائته وسجنه ، وقد ظل ثمامة أثيراً عند المأمون ، محبواً بالعطاء ، مقدماً في مجالس العلم والمناظرة ، حتى مات كما قال ابن شاكر في كتابه المخطوط عيون التواريخ سنة ٢١٣ هـ .

معتقده :

كان ثمامة من القدرية الذين يحددون القدر أو ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء ، وقد أراد بعض متكلميهم أن ينفي هذه التسمية عنهم ، متعللاً بأنهم ينفون القدر ولا يثبتونه ، ومن يثبت أولى بهذه التسمية ؛ ولكنه في هذا التعليل مموه يلبس الباطل ثوب الحق ، لأنهم ينكرون القدر لله ويثبتونه لأنفسهم ، فهم قدريون يثبتون القدر لهم ، وتسميتهم بهذا مولدة ، إذ لم تعرف العرب القدرية بهذا المعنى ؛ ولثمامة طائفة نسبت إليه ذكرها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، وذكر خلاصة مذهبه الذي انفرد به عن أصحابه فخصره في :

- (١) أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها
- (٢) أن الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والبهائم وأطفال المسلمين يصيرون تراباً يوم القيامة .
- (٣) أن الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وخلوها من الآفات وهي موجودة قبل الفعل
- (٤) أن المعرفة متولدة من النظر ، فهي كسائر الأفعال المتولدة لا فاعل لها .

(٥) أن المعارف كلها ضرورية ، ومن لم يضطر إلى معرفة الله فهو معذور مسخر للعباد كالحيوان .

(٦) أن العالم فعل الله بطباعه

وبالتأمل والاطلاع على آراء المعتزلة نجد أن الأفعال المتولدة في مذهب كثير منهم لا فاعل لها ، غير أن ثمّة توسع وأدخل فيها المعرفة وحكم بأنها متولدة من النظر ، وليس لك فيها إلا توجيه الإرادة . أي أنها ضرورية ، وذلك رأى الجاحظ وطائفته أيضاً ، ويترتب على القول بهذا أن آراء الإنسان وعقائده ليست مكتسبة ، بل هي مفروضة عليه فرضاً ، وأنها نتيجة لازمة لتكوين عقله وما يعرض من الآراء ، فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله يضطر إلى عدم الاستحسان وليس في قدرته أن يستحسن ، ومن أسلم عن نظر فأسلامه غير مكتسب ، ومن كفر فكفره غير مكتسب ، أي لا دخل له في كفره أو إيمانه ، وأن الأضرار التي تحدث غير مباشرة للفاعل لا عقاب عليها ولا مسئولية فيها ؛ فإذا أشعل إنسان عوداً فأحرق بيتاً وتولد عن الإحراق موت أشخاص - وعن موتهم أضرار لا يسأل من أشعل عن هذه الأضرار ، لأنه قد يكون ميتاً والميت لا يمكن نسبة شيء إليه ، ولو تأملوا في ربط المسببات بأسبابها ، وإسناد الحوادث إلى أصولها ، لصح عندهم أن المتولدات راجعة إلى الفاعل الأول بتسلسلها عما قبلها .

وبقراءة كتاب الانتصار لابن الحياط يعلم أن مذهب ثمّة في الكفار والمشركين الخ ، وعقيدته في أن العالم فعل الله بطباعه - مدسوس عليه ؛ فقد قال ابن الحياط في ص ١٧٢ :

« وأما اليهود والنصارى والزنادقة فكفار عنده مشركون عامدون للمعصية والكفر ، والكفار عنده في النار خالدون ، وإنما قال ثمّة : إن من لم يعرف فهو معذور عند الله وهو ليس يهودياً ولا نصرانياً ولا زنديقاً إذا كان جاهلاً ، ولكنه مع قوله هذا يحكم على جميع من أظهر الكفر أنه كافر في حكم الإسلام ، وقال في الرد على أن العالم فعل الله بطباعه في ص ٢٢ ، ٢٣ :

« ويله من حكي هذا القول عن ثمّة ١ أو ليست كتب ثمّة معروفة وقوله

مشهوراً؟ وهل المطبوع عند ثمامة إلا الأجسام المعتملة المحدثه؟ فأما القديم الذى ليس بجسم فسبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وشئ آخر. وهو أن المطبوع على أفعاله عند أصحاب فعل الطباع هو الذى لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كالنار التى لا يكون منها إلا التسخين، والتلج الذى لا يكون منه إلا التبريد؛ وأما من تكون منه الأشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها،

وبدهى أن من فى الكون وما فيه مختلف جد الاختلاف فى أجناسه وأنواعه حجومه ومقاديره، ألوانه وأشكاله، حركانه وسكناته، فلا يمكن صدور مطبوعاً؛ وباطل أن يكون موجد أو جده بطباعه كما تقول ابن الراوندى وأشرك غيره معه كذباً ليكسب آراءه الوجاهة والاعتبار

ومن رد ابن الحياط على ابن الراوندى يعلم ما فى كتاب الشهرستانى من التساهل فى النقل وتحامله عليه فى وصفه بأنه «كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس، كيف والخلفاء كانوا يجلونه ويحترمونه؟

مناظراته :

كان ثمامة قويا فى الجدل، بارعا فى دحض الحجج وإسكات المناظرين، يأخذ الطريق عليهم أحيانا فلا يدع لهم مسلكا من حسن ما استقصى وقسم، ويسألهم أحيانا حتى إذا استوت حججهم فى أجوبتهم عمد إليها فأسقطها حجة حجة بعد أن أشهدهم على ضعفها، وقد ناظر وزراء وقضاة وعلماء ومغمورين لا نعرف عن صفاتهم شيئا، وتمكن بقاطع براهينه وقوة بيانه، وقرب منزلته من الخلفاء، من إغحام المجادلين؛ ولا تحسبن أنه فاز فى ميدان الجدل دائما، فسترى أن مجنونا أسكته، وطفلا أحمه، وفوق كل ذى علم عليم، وليس بغريب أن يغلب العوام والأطفال والنساء فطاحل العلماء وفلاسفة كبارا إذا كان المعول على البداهة والاعتماد على الذكاء وقوة الملاحظة؛ وقديما قرأنا فى كتب التاريخ أمثالا عدة توضح ذلك أجلى توضيح، وننقل هنا بعض مناظراته لترى كيف كان يفوق فى حوار بالظفر، أو يرمى بالتهت وقصر النظر.

(١) ناظر يحيى بن أكرم^(١) في خلق الأفعال فقال : ليست تخلو أفعال العباد من أمور : أن تكون كلها من الله ليس للعباد فيها صنع ، أو أن يكون بعضها من العباد وبعضها من الله . فإن زعمت أن ليس للعباد فيها صنع نسبت إلى الله كل فعل قبيح وكفرت ، وإن زعمت أنها من الله ومن العباد جعلت الخلق شركاء لله في فعل الفواحش والكفر وكفرت أيضا ، وإن زعمت أنها للعباد ليس لله فيها صنع صرت إلى ما أقوله .

(٢) حكى الجاحظ أن بشر بن المعتمر كان في مجلسه وعنده أصحابه ومعه مجبر يسألهم ويقول : أنتم تحمدون الله على إيمانكم ؟ وهم يقولون : نعم . فيقول لهم : فكأنه يحب أن يحمد على ما لم يفعل وقد ذم ذلك في كتابه . فيقولون له : إنما ذم من أحب أن يحمد على ما لم يفعل ممن لم يعن عليه ولم يدع إليه . وهو يشغب عليهم . إذ أقبل ثمامة بن أشرس ، فقال لبشر للمجبر : قد سألت القوم وأجابوك ، وهذا أبو معن فاسأله عن المسئلة . فقال له : هل يجب عليك أن تحمد الله على الإيمان قال : بل هو يحمدني عليه لأنه أمرني به ففعلته ، وأنا أحمده على الأمر به والتقوية عليه والدعاء له . فانقطع المجبر ، فقال لبشر : شبعنت فسهلت .

(٣) قال ثمامة أنشدني أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو ماله
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه
فقلت له : من أين قضيت بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إنما لك من مالك ما أكلت فأفנית ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه الحق ؟ قال : نعم . قلت :

(١) هو محمد يحيى بن أكرم التميمي ، وقال الشهاب الخفاجي : إنه ابن أكرم بالثناء وجزم بذلك في شرح الدرر ، ولكن الأول هو المشهور . كان قاضياً للرشد ، ثم وزيراً للأمويين ، وكان من بحور العلم لولا دعاة فيه ، ومن تلاميذه الترمذى والسراج ، وتوفي سنة ٢٤٢ هـ

فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال: يا أبا معن، والله إن ماقلت هو الحق، ولكنني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. فقلت: وبمّ تزيد حال من افتقر عن حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله ثم قال لي: والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم. فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته، فأمسكت وعلمت أنه ليس من شرح الله صدره للأسلام.

(٤) قال رجل لثمامة: إن لي إليك حاجة. قال ثمامة: ولى إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: لا أذكرها حتى تضمن قضاءها. قال: قد فعلت. قال: ثمامة حاجتي ألا تسألني هذه الحاجة. قال: رجعت عما أعطيتك. قال ثمامة: لكنني لا أرد ما أخذت الخ

(٥) قال رجل لثمامة: أنت إن شئت قضى فلان حاجتي. فقال ثمامة: أنا قدرى، ولم تبلغ قدرتي هذا كله؛ إنما قلت: إن شئت فعلت ولم أقل إن شئت فعل فلان

(٦) دخل أبو العتاهية على المأمون فطعن على أهل البدع وجعل يخص القدريّة باللعن؛ فقال له المأمون: أنت صاحب شعر ولغة، وللإسلام قوم. قال: يا أمير المؤمنين، لعمرى إن صناعتى لتلك، ولكنني أسأل ثمامة عن مسألة فقل له يجيبني. فقال له المأمون: لا ترد هذا فلست في الكلام من طرزه. فقال: يتفضل على أمير المؤمنين بذلك؟ فقال: يا ثمامة، إذا سألك فأجبه. فأخرج أبو العتاهية يده من كمه ثم حركها وقال: يا ثمامة، من حرك يدي؟ قال: من أمه الحناء. فقال: شتمني والله. فقال ثمامة: ناقض والله. فقال له المأمون: قد أجاب عن المسألة، فإن كان عندك زيادة فزده. فانصرف أبو العتاهية

وإنما قال ثمامة: ناقض والله. لأن أبا العتاهية كان مجبراً وثمامة قدرى

(٧) قال ثمامة: خرجت من البصرة أريد المأمون، فإذا بهنون مشدود حسن الوجه كأنه صحيح العقل، فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ثمامة. قال: أمتكم؟

قلت : نعم . قال : لم جلست على هذه الآجرة ولم يأذن لك أهلها ؟ قلت : رأيته مبذولة
 جلست عليها . قال : ففعل لأهلها فيها تدبيراً غير البذل ... ثم قال : هنامسألة أسألك
 عنها . قلت : هات . قال : أأست القائل : إن العبد لا ينفك عن نعمة يجب الشكر
 عليها أو بلية يجب الصبر لديها ؟ فقلت : نعم . قال : لو أصبت بما يلزمك عيباً
 ويصمك بالعار ، أهذا نقمة أم نعمة ؟ قال ثمامة : فتحيرت ولم أدر ما أقول ؛
 فقال : وهنامسألة أخرى . فقلت : هات . قال لي : أخبرني متى يجد صاحب النوم
 لذة النوم ؟ إن قلت قبل أن ينام ، أحلت ؛ لأنه يقظان ، وإن قلت في حال النوم ،
 أبطلت ، لأنه لا يعقل شيئاً ، وإن قلت بعد قيامه ، فقد خرج عنه ، ولا يوجد
 الشيء بعد فقدانه ، قال ثمامة : فهبت ولم أستطع جواباً . فقال المجنون : مسألة
 أخرى . تزعم أن لكل أمة نذيراً ، فمن نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدرى الجواب .
 فقال : أما الجواب عن التقسيم فيجب أن تكون الأقسام ثلاثة : نعمة يجب
 الشكر عليها ، وبليتان : بلية يجب الصبر لديها ، وبلية يمكن التحرر عنها لكيلا
 ينضم العار إليها ، وأما الجواب عن النوم ، فمحال أن يدرك النائم لذة النوم ، وأما
 النذير ، فقد أخرج من كمه حجراً وقال : إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره . ورماني
 بالحجر فأخطأني ، فلما رآه قد أخطأني قال : فأتاك النذير أيها الكلب الحقير !
 فتركته وانصرفت : ولم أر مجنوناً بعده .

(٨) قال الجاحظ : قال ثمامة : دخلت إلى صديق لي أعوده ، وتركت حماري
 على الباب ، ولم يكن معي غلام ، ثم خرجت فإذا فوقه صبي ، فقلت : لم ركبت
 حماري بغير إذني ؟ قال : خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت : لو ذهب كان أحب
 إلى من بقائه . قال : فإن كان هذا رأيك في الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه
 لي واربح شكري . فلم أدر ما أقول .

والمناظرتان الأخيرتان غلب فيهما ثمامة وانقطع عن الإجابة

محوه :

من يتتبع مناقشات ثمامة ونوادره لا يسعه إلا أن يحكم عليه بأنه كان قليل
 الاكتراث ، لا يحافظ على سميت العلماء ووقارهم ، فلم يمنعه الحياء أن ينطق بالعوراء

إمام المأمون في مناقشته أبا العتاهية ، ولم يستتر حين كان يرتكب ما يوجب استهجاناً ونقده ، ولم يبال بالعامية في شيء ؛ وله في تحقيرهم وعدم الاعتداد بهم الكثير ؛ ولقد كان يحسبهم قطعاً يساق بالعصا ويتبع كل ناعق ، وبلغ من استخفافه بهم أنه حرض المأمون أن يلعن معاوية ، ويكتب بذلك كتاب يقرأ على العامة في يوم الدار ؛ وهم المأمون بذلك لولا أن أشار عليه يحيى بن أكرم فقال : « الرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ، وألا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصح في السياسة وأحرى في التدبير ، فقال المأمون إلى رأي يحيى ، فقال ثمامة : وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، وقد سواها الله بالأنعام فقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . وحكى للمأمون مشهداً رآه فأضحك ، وإنا لذاكرون بعض نوادره لتؤيد مآل إليه قصدنا بهذا العنوان (١) خرج من منزله بعد المغرب وهو سكران ، فإذا هو بالمأمون قد ساق إليه وحاذاه ، وقد ركب في نفر ؛ فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه ، وبصر به المأمون فساق إليه وحاذاه أيضاً ، فوقف ثمامة ، فقال له المأمون : أنت ثمامة ؟ قال : إى والله . قال : سكران أنت ؟ قال : لا والله . قال : أو تعرفنى ؟ قال : إى والله . قال : فن أنا ؟ قال : لا أدري والله ! فضحك المأمون وانثنى عن دابته حتى كاد يقع (٢) قال ثمامة : مررت بابراهيم الموصلى ويزيد حوراء وهما مصطبحيان وقد أخذوا بينهما صوتاً يغنيانه ، هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وهو :

أيا جبلي نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها
قال ثمامة : فو الله ما خلت أن شيئاً بقي من لذات الدنيا بعد ما كانا فيه
أليس في قوله استصواب للسكر وحث عليه واستنكار لبقاء لذات الدنيا بعد السكر والغناء ؟ وفي ذلك من الاستهتار والمجانة ما فيه .

(٣) ومن نوادره وأجوبته المسكتة معاً أن قالوا له حينما احترقت داره : « ما أسرع خلف الحريق ! ، فقال : « فأنا أستمحق الله ،

(٤) وما رواه الحسن بن رجاء أن سلاماً الأبرش سجان هرون الرشيد جلس يقرأ عشيّة في المصحف : « ويل يومئذ للمكذّبين ، فقال له ثمامة من السجن : إنما هي للمكذّبين . وجعل يشرح له ويقول : المكذّبون هم الرسل ، والمكذبون هم الكفار . فقال سلام : « قد قيل لى إنك زنديق ولم أقبل ، ولما رضى الرشيد عن ثمامة وأطلقه سأل جلساءه عن أسوأ الناس حالاً فقال : كل واحد شيئاً أما ثمامة فقال : « أسوأ الناس حالاً عاقل يجرى عليه حكم جاهل ، قال ثمامة : فتبينت الغضب فى وجه الرشيد ، فقلت : يا أمير المؤمنين « ما أحسنى وقعت بحيث أردت ، قال : لا والله ، فأشرح : خدثته بحديث سلام ، فجعل يضحك حتى استلقى وقال : صدقت ، والله لقد كنت أسوأ الناس حالاً

أدب

ليس تحت أيدينا - بحسب ما وسعنا البحث - من الأدلة الناطقة بعلو كعب ثمامة فى الأدب شىء يذكر ، فلم نقرأ له مقطوعات شعرية رائعة تشهد له بسمو الخيال أو البراعة فى الابتكار ، ولم نقف له على رسائل ديجها قلبه وأسالتها يراعتة ، ولم نحفظ عنه خطبا رددتها المحافل وتناقلها الرواة ؛ ولكننا نقرأ شهادات من معاصريه تقر بأنه كاتب بليغ وأديب ضليع ومناظر بارع ، وتصف ألفاظه ومعانيه بصفات البلاغة مجتمعة والفصاحة كاملة ، ولعل آثاره التى بنوا حكمهم عاينها اندثرت فيما اندثر من نتاج القرائح وثمرات الأفكار ؛ إما حقداً عليه لمنزلته من الخلفاء وتمكنه من تجريح المناظرين أمامهم ، وإما لأنها كانت تشتمل على مذاهب لا ترضاها العامة وقد نالت منه ما نالت فبادلته بالتحقير إخفاء لآثره وتضييعا لنتاجه ، وإما لأنها كانت تتضمن قوارص ومخازى تحز فى الخصوم وتعيب جلساءه ، ولم يصل إلينا إلا تنف من أخباره ونوادره ، وطرف من مناقشاته ، وإنما مع قلتها لتبين لنا مقدار تأثير الأدب بعلم الكلام وتجلي قوته البلاغية ، والجاحظ بمن يقرون له بالأدب ويعترفون ببلاغته ؛ وحسبك بإقرار الجاحظ واعترافه شهادة قال الجاحظ : يقول ثمامة : « كان جعفر بن يحيى البرمكى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض

ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ، وقال ثمامة أيضا : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحج ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يتلص التلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه - أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى ، يقول الجاحظ بعد هذا القول : « وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة فوصف بها جعفر بن يحيى كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان في زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإيفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه ؛ وكان لفظه في وزن إشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ؛ قال بعض الكتاب :

« معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه ، الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الخريبي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف ،
انتهت شهادة الجاحظ ، وهي تعترف في صراحة ووضوح بأن منزلة ثمامة من البلاغة منزلة من تملكوا زمامها وتصرفوا فيها بما يعجب ويغرب .
وبما يدل على بلاغته وفصاحته النبذ التي نذكرها بعد :

(١) سأل المأمون يحيى بن أكرم و ثمامة بن أشرس وعلى بن عبيدة الريحاني عن العشق ما هو ؟ فقال على بن عبيدة : العشق ارتياح في الحلقة ، وفكرة تجول في الروح ، وسرور منشؤه الخواطر ، له مستقر غامض ، ومحل لطيف المسالك ، يتصل بأجزاء القوى وينساب في الحركات .

وقال يحيى : العشق سوانح تسنح للبرء تؤثرها النفس ويهيم بها القلب . قال ثمامة : يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب في مسألة في الطلاق أو عن محرم يسطاد ظيماً ، أما هذه فمألتنا . فقال المأمون : ما العشق يا ثمامة ؟ قال :

إذا تقادحت جواهر النفوس بوصف الشاكلة ، أحدثت لمع برق ساطع تستضيء به نواظر العقول ، وتشرق له طبائع الحياة ، فيتولد من ذلك البرق نور

خاص بالنفس متصل ، بجوهريتها ، يسمى عشقا . وقيل : إنه قال : « العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر ، مسالكة لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ؛ ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآرامها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها ؛ توارى عن الأبصار مدخله ، وغمض في القلوب مسلكه ، فقال له المأمون : أحسنت يا ثمامة ؛ من يصف العشق يصفه مثلك ، فإنك طبيبه الخاذاق . وأعطاه ألف دينار . وأنت ترى في تعريفه الأول مذهبه من التولد والاتصال والامتزاج ، وتراه في تعريفه الثاني يستقصى الصفات والآثار على طريقة المتكلمين والفلاسفة حين يصفون أو يشرحون

(٢) روى الجاحظ عن ثمامة يصف تلاعب الجرذان وقتالها حين حبسه الرشيد في بيت ضيق مليء بأجحارها :

« لم أرقط أعجب من قتال : كنت في الحبس وحدي ، وكان في البيت الذي أنا فيه جحر فأرى يقابله جحر آخر ، فكان الجرذ يخرج من جحره فيرقص ويتوعد ويصوب بذنبه ويرفع صدره ويهز رأسه ، فلا يزال كذلك حتى إذا برز الآخر ، دخل في جحره وصنع الآخر مثل ذلك ؛ فلا يزالان كذلك في الوعيد وفي الفرار وفي التحاجز وفي ترك التلاقي ، إلا أني في كل مرة أظن الذي يظهر لي من جدهما وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان لشيء أهونه العضم والخش ، ولا والله إن التقيا قط ؛ فعجبت من وعيد دائم لا إيقاع معه ، ومن فرار دائم لا إثبات معه ، ومن فرار لا يمنع العودة ، ومن إقدام لا يوجب الالتقاء ، ليس هو إلا الصخب والتشبث . فلم يعد كل واحد منهما حتى يدخل جحره ، وما زالا كذلك حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلي سبيلى .

(٣) كتب ثمامة إلى الرشيد من الحبس :

عبد مقرر ومولى شت نعمته بما تحدث عنه البدو والحضر
أوقرتة نعماً أتبعتهما نقماً طوارقاً فيها في الناس يشتهر
ولم تزل طاعتى بالغيب حاضرة ما شأنها ساعة غش ولا غير

فإن غفوت فشيء كنت أعهدہ أو انتصرت فن مولاك تنتصر
ولم نر له فيما وصلت إليه أيدينا من المصادر شعراً غير هذا ، ولم يحدثنا من
كتب عنه أنه شاعر؛ وما قدمناه عن ثمامة لا يجعل صلته بالأدب وثيقة ذات بال ،
فترجمته في علم الكلام أليق وأولى .

على السباعي

المصادر :

البيان والتبيين للجاحظ ، الحيوان له أيضا ، الأغاني ، أمالي المرتضى ، عيون
التواريخ لابن شاكر المخطوط بدار الكتب ، تاريخ الخطيب البغدادي ، معجم
الأدباء ، الفهرس لابن النديم وتكملته ، تاريخ الطبري ، الانتصار لابن الخطاط .

